النشـــــــــرة

تصـــدرها مطـــرانية الـــروم الأرثوذكـــس في بـــيروت

العدد ٥ / ٢٠٠١

الأحد ٤ شباط

أحد الفريسي والعشار

تذكار أبينا البار إيسيدوروس الفرمي

اللحن الثامن

إنجيل السَحَر الحادي عشر

الـــرســـالـــة (٢تيموثاوس ٣ : ١٠ ١٥)

الإنـــجـــيـــل (لوقا ١٨ : ١٠-١٤)

+ التريودي

لا بُدَّ من الحديث في كل عام عن فترة التهيئة للصوم الأربعيني المقدَّس، المعروفـــة بالتريودي. إلا يتهيَّأُ أحدُنا لحفلة ما، أو لأي نشاط يودُّ القيام به، فيحضُر ما يلـــزم؟ الكنيســـة أيضًا، كأم تحتضن أبناءها، تهيئ لهم الجو المؤاتي ليسلكوا نحو القيامة المجيدة بأمان، ولكـــي لا يظن أحدهم أنه يستطيع السير بخطى ثابتة نحو الملكوت دون الاتكال على النعمة الإلهيـــة التي للمرضى تشفي وللناقصين تكمِّل. فالإنسان آنية خزفية بحسب تعبير الرســـول بولـــس، سريع العطب والكسر، وضعيفٌ أمام التجارب. لكن النعمة هي التي تحفظ هذه الآنية ســـالمة، لهذا قال الرب: «لأنكم بدوني لا تقدرون أن تفعلوا شيئًا» (يو ١٥: ٥). وما تعليم الكنيســـة إلا

تعليم الرب من خلال ما بشَّرنا به بحياته أو بكلامه أو بعجائبه. وتلك الأمور تؤيد خلاصنا وتثبته.

للصوم شروط، وهذه الشروط لم توضع لتكبيلنا، إنما لتحريرنا من كل شيء حتى من ذواتنا. ألم يقل الرب: «إن أراد أن يأتي ورائي فلينكر نفسه ويحمل صليبه ويتبعني» (متى ١٦: ٢٤)؟ وللارتقاء نحو القيامة المجيدة لا بد لنا من السير على خُطى الرب يسوع؟ ألم يعلمنا أن الإتضاع شرط أساسي للسلام الداخلي: «احملوا نيري عليكم وتعلَّموت مني، لأني وديع ومتواضع القلب، فتجدوا راحة لنفوسكم» (متى ١١: ٢٩)، هذا هو مغزى أحد الفريسي والعشار. الفريسي المتعجرف رأى نفسه متعاليًا في الفضيلة على العشار، لأنه يطبق الناموس بحرفيته دون عيشه، نسي أن الله يريد «رحمة لا ذبيحة» (هوشع ٦: ٦ ومتى ٩: ١٣). ولكن لا نخف، وإن ابتعدنا عن الله بأقوالنا وأفعالنا وأفكارنا، فلنعد إليه بالتوبة الصادقة لأن الرب، بمحبته ورحمته، ينتظر لقاءنا دون التفوه بكلمة إدانة، وسينتشلنا من عُمق آثامنا، ليلبسنا الحلة الملوكية وخاتم الملك، ويذبح لنا العجل المسمن، فيفرح هو أولاً بعوديتنا، ونحيا نحن تحت أجنحة محبته. هذا ما يعلّمنا إياه أحد الإبن الشاطر.

هل نكتفي بهذا للثبات بحياتنا مع الله؟ الجواب واضح من الكتاب المقدس إذ يوجه الرب يسوع أنظارنا نحو كل إنسان نلاقيه، لأننا إن كنا مع الآخر نكون مع الرب يسوع نفسه. ألم يقل في اليوم الأخير، يوم الدينونة الرهيب، لخراف اليمين: «تعالوا يا مباركي أبي رثوا الملكوت المعد لكم... الحق أقول لكم: بما أنكم فعلتموه بأحد إخوتي هؤلاء الأصاغر فبي فعلتم» (متى ٢٥: ٣١-٤٦). إن لم نعاين المسيح في وجه كل إنسان لن نعاين الرب في اليوم الأخير. ملكوت السموات داخل كل منا، ولا فضل لإنسان على آخر إلا بمقدار محبته، لأن «الله محبة» (١يو ٤: ٨). فالذي يحب يخدم، يرحم، يعطي... إلخ. هذا مغزى أحد الدينونة، أحد مرفع اللحم. المحبة تعلِّمنا عدم إدانة الآخرين لأننا جميعنا تحت سلطان الخطيئة والموت. فعندما نصوم دون إدانة من لا يصوم، وعندما نصلّي لا لنظهر للناس برَّنا إنما للذي يرى في الخفية ويُجازي علانية، وعندما نترك للناس زلاَّتهم ليترك لنا الله زلاتنا، عندها فقط نرضي الله، ونتحوَّل من أجساد ترابية مائتة إلى أجساد سماوية، «وكما لبسنا صورة الترابي سنلبس أيضًا صورة السماوي» (١كور ١٥: ٤٩)، كما يشاءنا الرب أن نكون. فإنه لهذا أتانا متجسدًا وناشلاً إيَّانا من جب آثامنا. هذا ما يعلّمنا إياه أحد مرفع الجبن، المعروف أيضًا بأحد الغفران.

هكذا نتهيأ للصوم الأربعيني المقدَّس، ليكون صومنا ربحًا لنا للخلاص، وليس للدينونة. الطاعة ربحٌ، إذا كانت الطاعة للرب من خلال أحكامه ووصاياه التي تُحيي وتحفظ مِنَ الإثم؟

+ دستور الإيمان

«وتجسد من الروح القدس ومن مريم العذراء وتأنس»

أعتقد أن الإيمان المسيحي بأن يسوع وُلد من عذراء يشكّل العثرة الكبرى لغير المؤمنين وللذين خارج المسيحية. هذا المعتقد رفضه أيضًا بعض المسيحيين، خاصة أولئك العلماء البروتستانت الذين يدرسون الإنجيل والإيمان «علميًّا» والذين يرون أن الإيمان بأم عذراء غير مقبول، وإهانة للمنطق، وخرافة. لكن المؤمنين البسطاء الذين هم على شيء من التواضع، يقبلون باتضاع وبدون تشكيك هذا التعليم الإنجيلي. لا يقبلونه فقط، بل يتقبلونه كهدية مفرحة، كسر مشع مفرح تلطف الله بنعمته وكشفه لنا. وبما انه يستحيل برهان «حقيقة» الحبل والولادة العذريين، يبقى علينا أن نؤمن أو لا نؤمن. إما أن نقبل باتضاع أو نرفض «من حيث المبدأ» باسم العلم والمنطق. وهكذا، عندما نتحدث عن هذا المعتقد، نحن نحاول الإفصاح عما يمنحه هذا المعتقد لوعينا وقلبنا، عما يكشفه لنا في أعمق جزء من كياننا.

طبعًا الإيمان بولادة المسيح من عذراء كما هو وارد في الأناجيل يطرح السؤال عن منطقنا، والعقل، وحدود المقاربة العلمية لكل هذه الظواهر الإستثنائية التي يستطيع العقل وحده معرفتها بما انه هو الحكم الأعلى شرعيًا. هذا السؤال مهم، لأن عذرية والدة الإله، كما تسمي الكنيسة والدة يسوع، مرفوضة على أساس المنطق. يقول المنطق: هذه (أي ولادة عذراء) لا يمكن حدوثها، وبالتالي يجب محوها من الإنجيل. لذلك، نحن مجبرون على تقرير من هو أعلى: الإنجيل أم المنطق؟ مَنْ يحكم مَنْ، ومَنْ يصحّح مَنْ؟ هل المنطق يحكم الإنجيل، أم الإنجيل يحكم المنطق؟ يجب أن أشير إلى ان هذا الصراع ينسحب ليس فقط على تأكيد الإيمان بعذرية مولد المسيح، بل على موضوع الله نفسه، كما نعلم جيدًا. المنطق والعلم لا يعرفان الله الخالق والله المحبة ولا الله المخلّص. العلم لا يعرف إلا ما يستطيع أن يتثبت منه، وهذا التثبت، كما تقول الفلسفة، يجب أن يستند على التجارب.

إذًا الهوة تتسع، والسؤال الآن هو: هل هناك ميدان للمعرفة أو ظاهرة حياتية ليس للعقل الكلمة الفصل فيهما والحكم النهائي؟ الكلام هنا على الأقل عن العقل البشري الأرضي، علمًا ان المسيحية تضع العقل في منزلة عالية. يمكننا طرح السؤال بشكل آخر: هل هناك حدود للعقل، بحيث يقول ــ إذا كان عقلاً ذكيًا وأصيلاً ــ إذا تخطى هذه الحدود: «لا أعرف»؟ أقول «العقل الذكي»، لأن هناك بكل تأكيد «عقلاً ساذجًا» صاحبه يصرخ عادة بصوت أعلى من الآخرين فيعتبر نفسه عارفًا كل شيء، فيما يقول صاحب العقل الذكي، العالم

الحقيقي، «لا أعرف بعد» عن كثير من الآمور، وهذه اللامعرفة جديرة بالعلم الحقيقي بما يفوق المعرفة غير المحدودة المغرورة.

ما موقف الإيمان المسيحي والمسيحية من العقل؟ أولاً: تعترف المسيحية ان العقل هبة الله الفضلى وانه هبة إلهية حقيقية. ثانيًا: تؤكد على ان الخطيئة أظلمت العقل وجعلته محدودًا ــ كما كل شيء في العالم والإنسان ــ وبالتالي فإنه لا يستطيع أن يعرف كل شيء ويفسره. أخيرًا، تشدد على ان العقل يستطيع ويجب أن يستنير ويتعمق ويولد من جديد عبر الإيمان. ولإتمام هذه الأمور يجب أن يكون العقل متواضعًا، أي أن يعترف انه ليس القوة الذكية الوحيدة الفاعلة في العالم، **وانه بحسب المنطق كل ما يستطيع فهمه بمفرده هو نوع من قوة عمياء غير منطقية خاضعة للسببية**، وانه يوجد إله يعمل، إله طرقه غير طرقنا، وحكمته غير حكمتنا، ويفوق بدرجات كل عقل متكبّر يؤكد معرفته الخاصة غير المحدودة. إذا اعترف الإنسان أو العقل بهذا تسقط كل الإعتراضات على المولد العذري ــ أي انه لا يحدث وبالتالي مستحيل؛ أو انه لا يتماشى مع نظام الطبيعة وبالتالي لا يحدث. عندها فقط نعترف ان قوانين العالم الأكثر عمقًا غير معروفة منا، كما ان الأعماق السرية للعقل غير معروفة، حيث يتلاقى العقل مع عمل الله الخالق المحب الضابط الكل.

لا تدّعي الكنيسة ــ والإيمان ــ ان المولد العذري أمر طبيعي يحدث دائمًا، أي يُحبل بالأولاد دون أب ويولدون من عذراء. لكن الكنيسة تؤكد ــ والإيمان ــ ان هذا الحدث الذي لا يوصف، غير المدرك لعقولنا الساقطة، والمستحيل، حدث مرة واحدة فقط عندما ظهر الله نفسه على الأرض كإنسان. هكذا فإن الإيمان بعذرية مريم أم يسوع لا يعتمد على إمكانية واستحالة حصول الحدث، أو على انه يحدث دومًا أو لا يحدث. الكنيسة تؤكد في إحدى صلواتها استحالة الأمر: «العذرية غريبة عن الأمهات والحبل غريب عن العذارى». الإيمان بعذرية مريم يعتمد على اعترافنا بأن المسيح هو الله الذي أتى إلى العالم، إلينا، «من أجلنا نحن البشر ومن أجل خلاصنا». إذا كنا نؤمن بهذا، عندها يصبح ممكنّا أن نفهم سر المولد العذري، لا بمنطقنا بل في أعماق ضميرنا ووعينا.

هذا السر يحوي إيمان الكنيسة بالمسيح ومعرفتها به كإله وإنسان، كإله متجسد. لم يُعطَ لنا أن ننزل الله إلى الأرض ونجعله بشرًا. إنه قرار الله ومبادرته. لقد صار إنسانًا بحسب قوانين الله وليس بحسب قوانين الأرض الطبيعية. المسيح هو ابن الله، وقد أخذ بشريته، لحمه ودمه منا، من إنسان، من مريم العذراء. لقد أُعطي للعذراء مريم أن تصبح أمًا بواسطة الروح القدس وقدرته الخلاقة ومحبته ــ وعبر ولادتها ابن الله، أعطينا الولادة ــ وأن تكشفه لنا كواحد منا، كإبن للإنسان.

قرار الله الحر أن يخلق الإنسان الجديد، وقبول الإنسان الحر هذه الهدية، هـــذا هــو معنى إيماننا وفرحه. انحدر الله من السماء لكي يصعد الإنسان إلى السماء. عبر يسوع المسيح أصبحنا أولاداً لله، وعبر مريم صار المسيح معنا وبيننا كأخٍ لنا، وابن لنا، ومخلّص لنا. كـــل هذا معبر عنه في الإعتراف البسيط في دستور الإيمان: «وتجسد من الروح القدس ومن مريم العذراء وتأنس».

(الأب ألكسندر شميمان)

+ من أقوال إفاغريوس البنطي

+ ذكر أخطاء الآخرين يطفئه العطاء. وليقنعك يعقوب الذي بالعطايا تودد لعيسو لما خرج هذا للقائه مع أربعمائة رجل (تك ٣٢:٤). أما نحن، لكوننا، فقراء، فلنحارب ذكر أخطاء الآخريــن بإطعامهم.

+ عندما نصطدم بشيطان الضجر فلنقسم النفس مع دموع إلى نفسين، جاعلين الأولى تعطــي التعزية والثانية تتلقاها، وزارعين فينا آمالاً صالحة، ومردّدين كتعويذة قـــول القديــس داود: «لماذا أنت حزينة جدًا يا نفسي، ولماذا تقلقينني، توكلي على الله فإني أحمده لأنـــه خــلاص وجهي وإلهي» (مز ٤١: ٦).

+ ينبغي ألا نغادر القلاية في وقت التجارب مخترعين ذرائع ظاهرها ممدوح، بل أن نبقـــى جالسين في الداخل، محتملين كل المهاجمين ومواجهين إياهم بالشـــجاعة، لا ســيما شــيطان الضجر الذي، لكونه أثقلهم جميعًا، يجرّب النفس إلى أقصى حدود. فالفرار من جهادات كــهذه وتجنبّها يعلّمان الذهن أن يكون غير بارع وجباناً وهاربًا.

+ كان معلّمنا القديس مكاريوس المصري الطويل الباع في العمل يقول: «ينبغي للراهـــب أن يكون مستعدًا دائمًا كما لو أنه سيموت غدًا، وأن يستعمل جسده، في المقابل، كمـــا لـــو أنـــه سيعيش فيه إلى سنين كثيرة». فالطريقة الأولى، على حد قوله، تقطع أفكار الضجر وتجعـــل الراهب أكثر غيرة. أما الثانية فتحفظ الجسد صحيحًا وتصون تقشفه مستويًا على الدوام.

+ لاحظت أن شيطان المجد الباطل تطرده كل الشياطين الأخرى تقريبًا، غير أنـــه يحضـــر بوقاحة فوق جثث مطارديه، فيُظهر للراهب عظم فضائله.

+ تذكر حياتك السابقة ومعاصيك القديمة، وكيف انتقلت إلى اللاهوى بنعمة المســيح، رغــم أنك كنت خاضعًا للأهواء، وأيضًا كيف خرجت من العالم الذي اذلك كثيرًا وفي أمور كثــيرة، وفكر أيضًا في هذا: من ذا الذي يحفظك في البرية، وبيعد عنك الشياطين التي تزأر بأســنانها عليك؟ فإن أفكاراً كهذه تصنع التواضع ولا تقتبل في داخلها شيطان الكبرياء.

+ إنّ الأشياء، إذا تذكّرناها على نحو يحمل هوى ما، نكون قد اقتبلناها في ما مضى مع هوى. كذلك الأشياء التي نقتبلها مع هوى، ستكون ذكراها أيضًا حاملة للهوى. لذا، فإن من انتصر على الشياطين الفاعلة يزدري ما فعلته هذه الشياطين، فالحرب اللامادية أصعب من المادية.

+ أهواء النفس أصولها في البشر عمومًا، أمّا أهواء الجسد ففي الجسد. وأهواء الجسد يقطعها التقشّف، أما أهواء النفس فتقطعها المحبّة الروحية.

+ من عادة الأهواء أن تحرّكها الحواس. فإن وُجدت المحبة والتقشّف لا تتحرك الأهواء، وإذا غابا تحركت. ويحتاج الغضب أكثر من الشهوة إلى أدوية، لذا، فالمحبة تُدعى عظيمة، لكونها لجام الغضب. وقد دعاها موسى القديس رمزيًا «محاربة للحيّة» في كتابه عن الطبيعة (راجع لاو ١١: ٢٢).